الخطبة الثالثة

الشريعة والجاهلية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه، أما بعد:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 39/ 9]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 58/ 11]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران 3/ 18]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 35/ 28].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليُصلُّون على معلم الناس الخير» أخرجه الترمذي (2685) من حديث أبي أمامة الباهلي، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة» أخرجه مسلم (2699) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

2 - تعريف العلم: العلم هو نقيض الجهل، وإذا قيل: رجل عالم، فُهم من

هذا العلم: العلم الشرعي، وإذا قيل: رجل جاهل، فُهم من هذا أنه جاهل بالأمور الشرعية، فإذا أطلق العلم قُصد به: العلم الشرعي، وإذا لم يكن المراد العلم الشرعي خصص، أو جاءت معه قرينة تفيد البيان، كأن نقول: عالم بالطب، عالم في مجال الهندسة، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: 39/ 64]، والعلم الشرعي هو: العلوم القرآنية وعلوم السنة النبوية، أي العلوم الدينية كلها.. قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُفقهه في الدين» أخرجه البخاري (71)، مسلم (1037) من حديث معاوية رضي الله عنه.

3 – والعلم الشرعي هو ما وَرَّثهُ الأنبياء والمرسلون، فالعالم وارث عن النبي ﷺ – وأي خصلة أفضل من أن تكون وريث رسول الله ﷺ – إذا أنت فهمت، وتعلمت مقاصد الشريعة ومراميها، وعَلَّمْتَها من أجل احتساب الأجر عند الله ونيل مرضاته؟ أي شيء أفضل من هذا يمكن أن تجنيه لنفسك؟ قال النبي ﷺ: «إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر» أخرجه أبو داود (3641)، والترمذي (2682) من حديث أبي الدرداء.

4 – والعلم الشرعي هو ذُخْرٌ للإنسان وذِكْرٌ ورفعة ومنزلة في الدنيا وفي الآخرة إذا كان العمل والعلم مقصوداً به وجه الله تعالى – واحتساب الأجر عنده – ولم يكن العلم لمنفعة دنيوية أو غرض أو هوى، لذا قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: 58/ 11].

وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له» أخرجه مسلم (1631) من حديث أبي هريرة. أما إذا طلب العلم لهوى أو مفاخرة أوما شابه ذلك – نجّانا الله من هذا – فيكون رياء وسمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قوله ﷺ: «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله تعالى (وهي العلوم الشرعية) لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد

عَرْفَ الجنة يوم القيامة» صحيح أخرجه أحمد (8438) من حديث أبي هريرة، و(3664) وأبو داوود من حديث أبي هريرة، (عَرْفَ الجنة) أي: ريحَها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليه رجلٌ اسْتُشْهِدَ، فأُتِيَ بِهِ، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فعَرَفَها، قال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: قاتَلْتُ فِيكَ حتى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كذبْتَ، ولكنَّكَ قاتَلْتَ لِيُقالَ: جريءٌ، فقدْ قِيلَ، ثمَّ أمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النارِ، ورجلٌ تعلَّمَ العِلْمَ وعلَّمَهُ، وقَرَأَ القُرآنَ، فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعمَهُ، فعَرَفَها، قال: فما عمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمْتُ العِلْمَ وعلَّمْتُهُ، وقَرَأْتُ فِيكَ القُرآنَ، قال: كذبْتَ، ولكنَّكَ تعلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقرأْتَ القُرآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ فقدْ قِيلَ، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النارِ، ورجُلٌ وسَّعَ اللهُ عليْهِ، وأعْطاهُ من أصنافِ المالِ كُلِّهِ، فأُتِيَ بِهِ فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها، قال: فمَا عمِلْتَ فيها؟ قال: ما تركْتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنفَقَ فيها إلَّا أنفقْتُ فيها لكَ، قال: كذبْتَ ولكنَّكَ فعلْتَ لِيُقالَ: هوَ جَوَادٌ، فقدْ قِيلَ، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فسُحِبَ على وجْهِهِ، ثمَّ أُلْقِيَ في النارِ» أخرجه مسلم (1905).

5 – والعلم الشرعي والعمل به دراسة وتحصيلاً وعلماً وتعليماً أفضل الأعمال قاطبة، فإن كنت طالب علم فمعشرك واجتماعاتك كلها مع أفضل الناس وهم العلماء الذين يعملون بالخير ويعلّمون الخير، وإن كنت معلماً فأنت مع الطلبة الطيبين الذي جاؤوا لمعرفة الله وأوامره وشرعه، فدائماً أنت في جو الخير والبركة، ودائماً أنت في عِشرة الطيبين الفاضلين، تملأ وقتك بالخير، وتُكثر من ملائكتك الذين يدعون لك.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ مَثَلَ مَا بعَثني الله بِهِ مِنَ الْهُدَى والْعلْم كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصاب أَرْضاً فكَانَتْ طَائِفَةٌ طَيبَةً، قبِلَتِ الْماءَ فأَنْبَتتِ الْكلأَ والْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمسكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ الله بِهَا النَّاس فَشَرِبُوا مِنْهَا وسَقَوْا وَزَرَعُوا. وأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا

تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينَ اللهِ، وَنَفَعَه مَا بعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمثلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلِكَ رَأْسًا وِلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» أخرجه البخاري (79) من حديث أبي الدرداء، ومسلم (2282).

6 - والجهل كما أسلفت هو: كل شيء يخالف الشريعة، أو هو كل شيء يخالف ما جاء به الأنبياء جميعهم، أو كما قيل: كل أمر خالف شرع الله من قول أو عمل أو اعتقاد أو سلوك أو عادة أو موضة أو تقليد فهو جاهلية. أو من أعمال الجاهلية لذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33/ 33]، فكل ما يخالف شرع الله من زينة ولباس وتبرج هو من الجاهلية، وهو من الجهل، ومن ينصر أخاه عصبية وظلماً فهو من الجهل، فالنصرة يجب أن تكون لإحقاق حق شرعي وإقامة عدل وإنصاف بين الناس، لذلك وصف الله الكفار إذ قال تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: 48/ 26].

وقال رسول الله ﷺ للصحابي الذي عيَّر أخاه: «إنك امرؤ فيك جاهلية» أخرجه البخاري (5703) من حديث أبي ذر؛ لأن التنقيص من كرامة المسلم أمر غير شرعي وأمر جاهلي وهو مما لا يرضاه الله تعالى.

وللجاهلية أركان قديماً أو حديثاً منها:

أ - أنها تقوم على تحكيم العقل.

ب - وتقوم على المصالح المادية إما لشعب ما أو فرد ما.

ج - وتقوم على إرضاء الشهوات والأهواء.

النقطة الأولى: قضية تحكيم العقل: هذه قضية شائعة وبشعة؛ لأن العقل محكوم بما يعرفه ومحكوم بحاضره ومحكوم بقصوره ومحكوم بنوازعه وأهوائه، فما يراه العقل اليوم حسناً يراه غداً بشعاً وشائناً، وما يحبه اليوم يكرهه غداً، فكيف لهذا

العقل القاصر المحدود أن يشرّع القوانين ويتحكم بمصائر الناس؟ وفوق هذا وذاك من أعطى الحق لهذا الشخص أو ذاك كي يقرر ويشرّع ويحكم؟ ومن سمح له بفرض وجهة نظره، قال تعالى: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 40/ 29]، وهاهم يرفضون عقيدة التوحيد، وكل شيء في الملكوت يقر بعقيدة التوحيد، حتى الكفار في كل العصور رضوا بملك واحد على البلاد، وبسلطة واحدة على البلاد - وزوج واحد في الأسرة - وقائد واحد للطائرة والباخرة - ورئيس واحد للشركة... ولله المثل الأعلى. إذاً لماذا لا يرضى الإنسان برب واحد وخالق واحد وإله واحد؟! قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: 38/ 5]، إذاً تحكيم العقل هذا أمر خاطئ كل الخطأ.

والنقطة الثانية: قضية المصالح المادية: تسن القوانين لصالح شعب ما أو فئة ما. وعامة الجاهلية في السابق أباحوا الاحتلال العسكري، وأباحوا الاحتلال الفكري، فهذا فرعون يخاطب قومه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: 40/ 26].

طبعاً يريد فرعون ذلك فهو الإله بزعمه، ولا يرضى لأحد أن يزعزع ملكه وألوهيته الزائفة، فالقضية تسير في صالحه، ولا يريد أحداً - مثل موسى - أن يُخرج الناس من عبادته إلى عبادة رب العباد، والشريعة والأحكام الموضوعة هي شريعة فرعون، من استعباد للعباد وبناء القصور والأهرامات للطبقة الحاكمة، فكيف يرضى بتغيير ذلك فهذا من الفساد في الأرض فسبحان الله العظيم!

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: 28/ 4]، يفرق الناس، ويوقع بينهم العداوة، ويستضعفهم، ويذبح الأبناء، ويستبيح الأعراض، هذا الذي يخاف عليه فرعون، وتغيير ذلك عن طريق موسى عليه السلام يكون فساداً بنظره.

والنقطة الثالثة من مقومات الجاهلية هي: إرضاء الشهوات والأهواء: وذلك أمر طبيعي؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها تحب الانفلات واليسر والرفاهية، والشهوات جِبِلِّيَّة، بشرية من نساء وأموال وقصور وسيارات ونزهات ورحلات وما إلى ذلك، ولذلك حتى تنجح الجاهلية وتجد لها أنصاراً وتصبح قوية لا بد لها من تقديم ما يرغبه الناس من شهوات وأهواء، وبذلك تتزاحم الناس في خدمة هذه الجاهلية، حتى تتحقق لهم مكاسب مادية ومناصب ومراكز يتحقق بموجبها ما يرغبون به من شهوات، ولذلك ترى أن قارون من أكبر أنصار فرعون، لأن فرعون تركه ليجمع المال ويستغل الناس ويستعبدهم حتى صار من أغنى أغنياء الأرض، ثم هامان أيضاً من أكبر المدافعين عن مصالح فرعون، لأن فرعون حقق له شهوته في السيطرة وفي المنصب الذي يرضاه فكان قائد الجند وصاحب أكبر سلطة تنفيذية.

7 – بهذه النقاط الثلاثة الآنفة الذِّكر نستطيع أن نشرح أية جاهلية مرت أو سوف تمر، فالإنسان هو هو منذ أن خلقه الله، فشهواته واحدة، وأهواءه واحدة، ومتطلباته واحدة، وجبلته واحدة، تختلف أشكالها ولكن جوهرها واحد، فمنذ أن خلق الله البشرية، وُجِدَ حبَّ المال، وحبَّ النساء، وحبَّ المنصب، وحبَّ التسلط والأنانية الشخصية والذاتية والبعض يعبر عن هذا (بالأنا)... وكما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 3/ 14 – 15].

8 – والعلم – أي: العلم الشرعي – هو: ضد الجهل، أو بمعنى آخر: الشريعة وعلومها كلها تقف في وجه الجاهلية؛ لأن الشريعة ما جاءت إلا كما قال رِبعي بن عامر رضي الله عنه وأرضاه عندما سأله قائد الفرس: لم جئتم إلى بلادنا؟ أي أننا لا نريدكم،

لأننا المسيطرون، نحن المتنفعون، نحن الأغنياء، نحن القواد، نحن الذين نستغل الناس ونستعبدهم، نحن أصحاب الشهوات ومستحلي الأموال والأعراض، لم جئتم تفسدون علينا حياتنا؟ فهذا السؤال يتضمن جواب رِبْعي رضوان الله عليه: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. بمعنى: أن الطبقة الحاكمة والأغنياء استعبدوا الشعب والناس لشهواتهم ومصالحهم، لذلك أجاب ربعي رضي الله عنه بدقة: لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة الله، وقوله: من ضيق الدنيا أي: الخضوع لشهواتها، واللهث وراء سراب اللذات إلى سعتها، وسعة الدنيا في العمل للآخرة وتجريد النفس من الغل والغش والحسد والضغينة وتسلط الشياطين.

لذلك فالشريعة ضد التسلط ضد الطغيان ضد الظلم وباختصار ضد الجهل، لذلك العداوة بين الشريعة وبين الجاهلية قائمة أبد الدهر، وأنصار الحق وأنصار الباطل موجودون في كل زمان وفي كل مكان. وهم في نزاع أبداً، أنصار الحق يناضلون في سبيل الله وفي سبيل جنته، وأنصار الباطل والجاهلية يناضلون في سبيل الشيطان وفي سبيل هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 4/ 76].

وها نحن اليوم نرى أمريكا تساند إسرائيل، وكل العالم يشهد بأن إسرائيل معتدية على شعب وعلى وطن وعلى مقدسات، وكل العالم يشهد بكذب إسرائيل وافتراءاتها ونقضها لكل العهود والعقود، وكل العالم يشهد برفضها لكل القرارات الدولية وتهزأ بالعالم أجمع، وأمريكا وراءها تساندها بالمال والعتاد والتكنولوجيا، وتعطيها الحماية القانونية الدولية ضد شعب أعزل من السلاح، ما له إلا الحجارة، وما له إلا الدعاء إلى الله... لماذا؟ لأن الجاهلية الأمريكية تحلل بعقلها المختل، وتعتقد بعقيدتها الفاسدة بأن مصالحها المادية مع إسرائيل.، وإسرائيل واليهود

يقومون بإرضاء شهوات وأهواء السياسيين من الدعم المادي والسياسي، وفوز في الانتخابات وما إلى ذلك، وإني أنتظر صحوة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم